هوامش

مع مرور الزمن وتبدّل أحوال المرأة، شهدت الوشوم في الجزائر تغيّرات ولم تعد ثقافة متوارثة. ولأنّها تُلاحَظ اليوم على جلد نساء تقدّمنَ في السنّ خصوصاً، فإنّها ذاهبة إلى زوال

تماماً كما الإرث... (فايز نور الدين/ فرانس برس)

وشوم الجزائريات
نقوش ومعانٍ إلى زوال

الجزائر ـ **فتيحة زماموش**

لا تخطئ العين الوشوم المرسومة على وجوه وأيدي جدّات ونساء مسنّات كثيرات في جزائر، بأشكال مختلفة تحمل معاني اجتماعية ودلالات ثقافية مختلفة يجد لها الباحثون تفسيرات من ضمن سياق تاريخي، في حين يُسجّل عزوف عن الوشوم لدى شابات جيل اليوم. نائّة العطرة سبعينيّة من هؤلاء النساء، وهي من جبال ثنية العابد في منطقة الأوراس الواقعة إلى شرق العاصمة الجزائرية. ما زالت هذه المرأة جميلة على الرغم ممّا فعلته التجاعيد بها، علماً أنّ وجهها مزيّن بوشم يعود إلى أكثر من نصف قرن من الزمن. بالنسبة إليها هو العلامة الفاصلة بين مرحلة عمرية وأخرى، وبين وضع اجتماعي وآخر، وبين أسلوب عيش وآخر، مضيفة أنّ الوشوم على وجنتَيها وجبينها ويدَيها تعني الكثير لها ولبنات جيلها، إذ هي «البقيّة الباقية من الذكريات في محطات العمر». وتؤكد نائّة العطرة لـ«العربي الجديد» أنّ «الوشم مثله مثل الإرث... غالٍ لا يمكن التفريط فيه». وتشرح أنّه «موروثٌ اجتماعي للنساء في ظروف معيّنة، بالإضافة إلى كونه نوعاً من زينة تضفي على نساء الأوراس والقبائل في الجزائر الوقار ونضج التجارب والوفاء للعشيرة والأسرة والعائلة».

ولكلّ وشم تفسير مرتبط بطبيعة البيئة والثقافة المحلية والعادات المناطقية. بالنسبة إلى لالة يمّونة التي تقترب من تسعينها، وهي من منطقة عين البيضاء شرقي الجزائر، فإنّ وشمها الذي يأتي على شكل مثلّث مع نقاط تعني أوتاد خيمة يمثّل المسكن، «يعبّر عن الوفاء لبيت الزوجية والألم المرافق لغياب الزوج الذي حمل نفسه وهاجر إلى خارج البلد طمعاً في تحسين وضعه الاجتماعي قبل أكثر من ستين سنة».

ويرمز الوشم على الجسد عموماً والوجه خصوصاً إلى الأنوثة، ويبقى على جبين المرأة في الغالب أو خدّها أو يدها حتى الموت. وهو قد يعني الوفاء للزوج الذي غادر مضطراً بيته لينضمّ إلى صفوف الثورة التحريرية في زمن الاستعمار الفرنسي، فيؤدي بالتالي إلى تنفير الرجال من المرأة حتى عودة زوجها حياً أو شهيداً. كذلك فإنّ بعض الخطوط والرموز على جبين نساء عدد من المناطق الجزائرية تدلّ على تلك اللحظة الفاصلة التي تتحوّل فيها الفتاة إلى امرأة، بحسب معتقدات نساء قرية المحمل ذات الأغلبية الأمازيغية في شرق الجزائر. وقد ترمز وشوم معيّنة على الجبين إلى الاحتفاء بمولود أوّل.

تقول الباحثة الجزائرية في الأنثروبولوجيا وحيدة سدراتي، من جامعة أم البواقي، إنّ «الوشم دلالة على ثلاثية العيش لدى الأنثى في منطقة الأوراس ذات الأغلبية الأمازيغية في شرق الجزائر، وهي الحبّ بداعي الخصوبة والزواج، والألم بداعي الفراق في الحياة أو الفراق بالموت، والجمال الذي تختزله تقاسيم وجه المرأة أو الأنثى». تضيف أنّ «الرسم أو النقش على البشرة يُعبّران من خلال علاماتهما عن تأكيد الذات في إطار الجماعة التي ينتمي إليها الفرد». ويُعَدّ الوشم بطاقة هوية تحملها المرأة أينما حلّت لتكشف عن شخصيتها أو تعرّف عن نفسها أو عن وضع اجتماعي معيّن، من قبيل أن تكون أماً أو متزوّجة أو أرملة أو مطلقة أو غير ذلك. ويذهب الباحث في علم الاجتماع نور الدين بن قارة من جامعة قسنطينة، إلى القول إنّ «الوشم لغة صامتة فهو يحمل دلالات كثيرة». ويوضح لـ«العربي الجديد» أنّ «الوشم يُعَدّ في أحيان كثيرة علامة من علامات البلوغ والخصوبة. على سبيل المثال، الرسم تحت الذقن يعني الخصوبة ويشير إلى أنّ الفتاة صارت قابلة للأمومة، ويطلق عليه اسم سيالا باللغة الأمازيغية. وثمّة رسومات تدلّ على الحالة الاجتماعية للمرأة، فللمتزوجة على سبيل المثال، رسمان على الخدَّين على شكل جذع نخلة يرمز إلى الخصوبة والعيش على ذمّة رجل. أمّا بالنسبة إلى الأرملة، فيكون الرسم على الأذنَين شبيهاً بلحية رجل». ويلفت بن قارة إلى أنّ «الوشم لا يقتصر على المرأة، إذ يعتمده رجال كذلك، غير أنّه يكون خفيفاً وغير مبالغ فيه كما لدى النساء. هم قد ينقشون حرفاً أو يرسمون وردة».

في الماضي، كانت النساء يجهّزن حبر الوشوم عن طريق عصر ورق الفاصوليا الخضراء، ويستخدمنَ إبراً حادة ومسحوق الفحم مع عطور نباتية. وما زال الوشم يستدعي اهتمام المتخصصين في الأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع، لأنّه يؤرّخ لعادات وطقوس المجتمعات التقليدية والمجموعات الأسرية التي كانت تعيش في الخيام وفي الجبال الجزائرية، وسط طبيعة قاسية.

وتفسّر المتخصصة في علم النفس سعيدة بلمداح، من جامعة البليدة، لـ«العربي الجديد» أنّ «الوشم لدى المرأة الجزائرية تعبير ضمنيّ لمطالب وقيم إنسانية يحمل بعدَين أو اتجاهَين. فالأوّل يأتي كرسالة اجتماعية، كتعبير موجّه إلى الآخر في بيئة المرأة، أمّا الثاني فهو شخصي ويتمحور حول الذات إذ يخصّ جسد المرأة الذي يتطوّر ويتغيّر مع مرور العمر». تضيف بلمداح أنّ «للوشم معاني عدّة تختلف من منطقة إلى أخرى أو بالأحرى من قبيلة أو عرش إلى آخر. وهو ممارسة ذات رمزية تعبّر عن التنشئة الاجتماعية ووثيقة تُسجّل على الجسد. وقد تطوّر وتغيّر بتغيّر الزمن والظروف التي تعيشها النساء، خصوصاً في الجبال والقرى».

باختصار

يرمز الوشم على الجسد عموماً والوجه خصوصاً إلى الأنوثة، ويبقى على جبين المرأة في الغالب أو خدّها أو يدها حتى الموت

■■■

هو موروث اجتماعي بالإضافة إلى كونه زينة تضفي على نساء الأوراس والقبائل في الجزائر الوقار ونضج التجارب والوفاء للعشيرة والعائلة

■■■

هو دلالة على ثلاثية العيش لدى الأنثى في منطقة الأوراس ذات الأغلبية الأمازيغية وهي الحبّ والألم والجمال

وأخيراً

النقاهة في الأدب

نجوى بركات

لا تتباين القواميسُ والمعاجمُ العربية، القديمة منها والحديثة، في تفسير معنى النقاهة، إذ تُرجعها إلى جذرها الثلاثي: «نقِه المريضُ، أي برئ ولا يزال به ضَعف». وهي حال قواميس أخرى، منها القاموس الفرنسي الذي لا يبتعد عن الشرح العربي. ومع ذلك، فإن حالة النقاهة لم ترِد ولم تولَ عنايةً خلال ما يعدو ثلاثة آلاف عام، على ما يبيّنه الباحثُ الفرنسي، دانييل ميناجيه، في كتابه الصادر العام الفائت عن دار «لي بيل ليتر» تحت عنوان «نقاهات، الأدب مستريحاً»، حيث يشير إلى صمت النصوص المقدّسة والوثنية التامّ عن تلك الحال التي تتوسّط حالين، هما المرض والعافية. ويردّ ذلك إلى نبذ التوراة الحالات الوسيطة أو المتحوّلة، لكونها رديف الضّعف والتراخي. في العهد الجديد أيضاً، الناس إمّا مرضى وإما أصحّاء، ومعجزات الشفاء فورية، ولا تتطلّب وقتاً أو تعرف إطالة. أما في موضوعة الأدب، وبالذات ذاك الذي تناول الفروسية ثيمةً رئيسية، فالقتال والمبارزات عديدة، والفرسان يصابون بجروح ويسقطون أرضاً، إلا أننا لا نرافق عذاباتهم وهم يسلكون درب الشفاء. إنهم يختفون من أمام أعيننا حتى عودتهم معافين، ممتطين صهوات جيادهم ومستعدّين للقتال من جديد. وقد تكون قلّة الاهتمام بفضاءات النقاهة عائدةً إلى لبس الأخيرة، وعدم وضوح حدوده، أو غموض المسافة التي تفصلها عن المعاناة أو الشفاء، مع الإشارة إلى أن نهاية النقاهة لا تعني البتة العودة إلى ما كان المريضُ عليه قبل إصابته بالمرض. «بحسب الطبيب والفيلسوف جورج كانغيلهم، إن عودة المريض بعد شفائه إلى ما كان عليه «من قبل»، هو وهم. وكل عودة إلى السويّة السابقة غير ممكنة».

هذا ويؤكّد ميناجيه أن فكرة النقاهة، بما هي محنة جسدية ونفسية، وفترة عودة إلى الذات للغوص في عمق الوجود الإنساني، وحتى باعثة على الحبّ، لم تحضر وتنتشر قبل القرن التاسع عشر، مع كبار الكتّاب، من أمثال بلزاك وغوته وجاين أوستن ومدام دو ستايل وهنري جيمس وريلكه وبروست وتوماس مان وفيرجينيا وولف، وكثر سواهم، حيث نقع حتى على تمجيد العضو المعتلّ، لكونه الدافع إلى خوض تجربةٍ روحيةٍ استثنائية. لذا، كانت فكرة النقاهة تتلقى مباركة المجتمع والمؤسسة الدينية على السواء، خصوصاً عندما تُفضي إلى مراجعة الذات مصحوبة بتحوّلات كبرى، كما رأى إليها كتّاب الأدب الروسي آنذاك، (ليون تولستوي على وجه الخصوص). إنها فترة مباركة تجعل الوقت طافياً، معلّقاً، وتشحذ الحواسَّ لتستجيب لأدنى الخلجات من حولها. «تبدو النقاهة شاحبةً وتافهةً، إذا ما قارنّاها بالحمّى وهذيانها. في المقابل، إنها تكرّس غلبةَ الإحساس، وهو ما يعطيها الأفضلية على المرض، كما على الصحة الكاملة المكتملة. عندما نكون مرضى، قلّما نحسّ بالأشياء، وحين نستعيد عافيتنا، يتوارى الإحساس أكثر فأكثر (...) النقاهة هي أخبار البعيد، ليس ذاك الذي نلمحه عبر النافذة مرسلاً إلى الروح نداءاتٍ خجولة، وإنما ذاك الذي نحمله فينا».

> حالة النقاهة لم ترِد ولم تولَ عنايةً خلال ما يعدو ثلاثة آلاف عام، على ما يبيّنه الباحثُ الفرنسي، دانييل ميناجيه

على عكس روائيّي القرن التاسع عشر، لم يرَ أدباءُ القرن العشرين الذين خبروا أهوال الحرب وبؤس الخنادق والأعضاء المبتورة، (في مقدمتهم الكاتبان الطبيبان، الفرنسي سيلين الذي قاتل بشجاعة، والألماني ألفريد دوبلن الذي ألحق بالمعسكر الطبي)، في فترة النقاهة أيّ رومنطيقية، بل إنهم اعتبروها رديفاً للجحيم ولكوارث الأزمنة الحديثة، حيث يسود النزاع من أجل البقاء على قيد الحياة، ويبلغ العذابُ والوجعُ وقرفُ العيش درجاتٍ قصوى. وبهذا، تتحول فكرة النقاهة إلى أداة تعبير دقيقة ومرآة عاكسة لعصرها.

في النهاية، يخلص الباحثُ دانييل ميناجيه، في عمله القيّم الذي يعيد قراءة أمهات الكتب ويُدخلنا عالمَ الرواية العالمية من بابٍ جديد، إلى أن الغرب لطالما وجد صعوبةً في تقبّل الفترات الانتقالية، غير المستقرة، معلّقاً: «لقد دخلنا في عصر الهشاشة».

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**